

المحاضرة السادسة : المدرسة البريطانية للاستشراق :

بعد حملة نابليون على مصر عام 1798م اهتم الإنجليز بميْدان الاستشراق نتيجةً طابع المنافسة التي اتَّسم بها العصر بين فرنسا وانجلترا، وقد تناول الاستشراق البريطاني سائرَ مناحي المعرفة الشرقية؛ من لغات، وآداب، وعلوم، وفنون، وتاريخ، وآثار، ولكن بداية الاستشراق البريطاني كانت قبل ذلك فقد تولى "سيمون أوكلي" مهمةً تدريس اللغة العربية في جامعة كمبريدج 1711 وألّف كتابه الشهير تاريخ المسلمين الذي تناول التاريخ الثقافي والسياسي للإسلام، وكان جورج سال الذي توفي في 1736 قد ترجم القرآن الكريم قبل ذلك.

وفي القرن التاسع عشر ظهر عددٌ من المتخصصين في الدراسات الاستشراقية؛ مثل "إدوارد وليم لين"، وهو صاحب كتاب في أخلاق وعادات المصريين الحديثين، وقد ترجم ألف ليلة وليلة إلى الإنجليزية بدقة، و"إدوارد هنري بالمر"، وليم رايت" الذي عمل في ليدن الهولندية مع المستشرق الهولندي الشهير دوزي، وقام بتحقيق كتاب: "الكامل للمبرد"، و"رحلة ابن جبير"، ومن المستشرقين الانجليز روبرتسون سميث، الذي انتخب رئيساً للجنة دائرة المعارف البريطانية، ومن أهم أعماله: أديان الساميين، أنساب العرب وهو من محرري الموسوعة البريطانية ويعتبر مؤسس علم تاريخ الأديان .

كما برز في ذلك الوقت مجموعة من الرحالة المستشرقين ومنهم: الطبيب توماس شاو الذي يعتبر مرجع للأبحاث الاثرية حول الجزائر في تلك الفترة حيث وضع خريطة للجزائر، وبفضل هذه المعلومات قامت بريطانيا بتعيين القنصل جيمس بروس وكلفته بمهمة متابعة أعمال الدكتور شاو، كما قام بها ضابط في الجيش الملكي البريطاني يدعى " قرونفيل تامبل" بمهمة بحث في الجزائر وتونس بتكليف من طرف الملك سنة 1835 ، ومن الرحالة ريتشارد فرنسيس بيرتون، الذي قام

برحلات برحلة حج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة متتكر في هيئة مسلم بشتوني وتلقى الدعم من قبل الجمعية الجغرافية الملكية، ونشر وصفاً لها في كتابه: الحج إلى المدينة ومكة، وكذلك كتب "خفايا الحياة في سورية"، ومن أهم المستشرقين **توماس كارلايل** صاحب كتاب: الأبطال وقد وضع فيه النبي الكريم ﷺ في قمة الأبطال الذين غيروا مجرى التاريخ.

وفي القرن العشرين أنشئت في جامعة لندن كلية جديدة خصّصت لدراسة اللغات الشرقية، ترأسها توماس أرنولد الذي ألف كتابه المشهور: الدعوة إلى الإسلام، الى جانب كتب اخرى منها: الخلافة تاريخ الحضارة الإسلامية حتى آخر العهد العثماني، وكتاب حول العقيدة الإسلامية، كما شارك في تحرير كتاب تراث الإسلام. وبرز بعد الحرب العالمية الثانية مستشرقون لهم اليد الطولى في استمرارية الدراسات الإسلامية في بريطانيا؛ من أمثال: **ألفريد جيوم، وهاملتون جب**، الذي يعتبر أبرز مستشرق بريطاني في القرن العشرين، انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليعمل مديراً لمركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفارد ، وقد تأثر بمستشرقين كبار من أمثال توماس أرنولد وغيره.

ومن أبرز إنتاج "جب": الفتوحات الإسلامية في آسيا الوسطى، ودراسات في الأدب العربي المعاصر، وكتاب الاتجاهات الحديثة في الإسلام، وشارك في تأليف كتاب بعنوان " إلى أين يتجه الإسلام؟ وكتاب بعنوان: "المحمية" وله كتاب عن الرسول ﷺ، وكتاب "المجتمع الإسلامي والغرب" .

ويعتبر المستشرقون البريطانيون الاكثر نشاط في الاستشراق من غيرهم فالمستشرق مارغليوت حقق كتب انساب السمعاني ومعجم الادباء لياقوت الحموي والامتاع والمأنسة للتوحيدي ونشوار المحاضرة للتوحي وتترجم تلبيس ابليس لابن الجوزي ، والمستشرق أمدور حقق تجار بالأمم لمسكويه وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي والوزراء لهلال الصابي ونشر المستشرق فان فولتن بعض رسائل الجاحظ وكتاب

البخلاء والمحاسن والأضداد ، وترجم جوسين المدينة الفاضلة بينما ترجم "دنلوب" فصول المدني للفارابي، واهتم "دي خويه" بسلسلة الكتب الجغرافية العربية ، وترجم كازانوفاً خطط المقرئزي الى الفرنسية وترجم غليون السيرة النبوية لابن هشام ، وترجم "فاكنان" اخبار المرغب للمراكشي والبيان المغرب لابن عذارى، والجزء الخاص بالمغرب واسبانيا من كتاب الكامل في التاريخ لابن الاثير وترجم "ماكارثي" نصوصاً من آراء الاشعري الكلامية.

مونتجمري وات يعد من أهم المستشرقين الانجليز له عدة مؤلفات ؛ من أشهرها: "محمد في مكة" و"محمد في المدينة"، و"محمد نبي ورجل دولة"، و"الفلسفة الإسلامية والعقيدة"، و"الفكر السياسي الإسلامي"، و"تأثير الإسلام في أوروبا القرون الوسطى"، و"الأصولية الإسلامية والتحديث"، و"العلاقات الإسلامية النصرانية"، ومن أواخر كتبه: "موجز تاريخ الإسلام" سنة 1995م، وكتاب: "الفترة التكوينية للفكر الإسلامي" سنة 1998م.

تميز هذا القسيس المختص باللغة العربية بتصريحاته التي يدعي فيها بان رسول الله ﷺ قد استقى تعاليمه من اليهود حيث يقول « محمد كان على دراية بالتعاليم اليهودية » وأنه كان « يحاول ان يجعل دينه أكثر يهودية».

ديفيد صموئيل مرجوليوث من مؤلفاته: "ما كتبه في السيرة النبوية"، وكتابه عن "الإسلام"، "العلاقات بين العرب واليهود"، ولكن هذه الكتابات اتّسمت بالتعصب والتحيز والبعد الشديد عن الموضوعية؛ وله كتب أخرى منها: "معجم الأدباء لياقوت الحموي"، ورسائل أبي العلاء المعري".

أرنولد جوزيف توينبي ولد في 14 أبريل 1889 في لندن وتوفي في 22 أكتوبر 1975، وهو من أشهر المؤرخين في القرن العشرين، يعتبرُ توينبي أحدثَ وأهمَّ مؤرِّخٍ بحثَ في مسألة الحضارات بشكلٍ مُفصَّلٍ وشاملٍ، ولاسيَّما في موسوعته التاريخية المُعنونة "دراسة للتاريخ" التي تتألف من اثني عشرَ مُجلدًا أنفق في تأليفها واحدًا

وأربعين عامًا، وكان لهذا المؤرخ موقف مشرف من القضية الفلسطينية فهو يرى أن ما فعلته حكومة بلاده هو عبارة عن جريمة منظمة بإحلالها لليهود وإعطائهم وعدًا بوطنٍ قوميٍّ لهم على حساب آخرين أنبتتهم تلكم الأرض.

ويمكن إيجاز أهم خصائص هذه المدرسة في الآتي:

• يمتاز الاستشراق البريطاني بارتباطه بالحركة الاستعمارية ومحاولة ترسيخ السياسات الاستعمارية البريطانية في الشرق.

• الاهتمام باللغة العربية نظرًا لمصالح بريطانيا الاقتصادية والسياسية التي تربطها بالعالم العربي.

• تتميز هذه المدرسة بالتعدد والشمول في سائر الدراسات الشرقية "آداب، تاريخ، فلسفة، علوم، فنون وعمارة وآثار".

• تتميز أيضًا بالتخصصية الدقيقة، فكلُّ مستشرقٍ له تخصصه الدقيق في أحد مجالات المعرفة الشرقية.

• الاهتمام بدراسة المعارف الخاصة بالمنطقة الجغرافية التي تقع تحت قبضتها الاستعمارية "مصر وإفريقيا السوداء"، مع الإهمال الواضح لشمال إفريقيا، نظرًا لوقوعه تحت قبضة الاستعمار الفرنسي.

• انشاء المعاهد للدراسات الشرقية وانشاء المكتبات منذ القرن الثامن عشر .

المستشرقون البريطانيون اكثر المستشرقين ارتباطا بالاستعمار والسياسة الاستعمارية حتى بعد الحرب العالمية الثانية، فالمسؤولين البريطانيين كانوا على اتصال دائم بالمستشرقين، فرئيس الوزراء البريطاني انطوني إيدن كان قبل أن يضع قراراً سياسياً في شؤون الشرق الأوسط يجمع المستشرقين ويستمع إلى آرائهم، ثم يقرر في ضوء ما يسمعه منهم، هذا إلى جانب أن بعضهم كان يؤسس صلات صداقة بالبارزين من رجال الأمة العربية ويتخذ من هذه الصلات ستاراً يقوم من ورائه بأعمال التجسس في أثناء الحرب، وفي الواقع لا يخفي البريطانيون نزعتهم

الصليبية الاستعمارية سواء كانوا من المستشرقين او من الساسة البريطانيين، فقد نقل عن الجنرال اللنبي قوله عندما دخل مدينة القدس سنة 1917 « اليوم انتهت الحروب الصليبية ».

الإستشراق البريطاني ما بين الحربين العالميتين :

تعتبر فترة ما بين الحربين العالميتين فترة مهمة في تاريخ الوطن العربي لأسباب عديدة، تأتي في مقدمتها أن الخارطة السياسية للوطن العربي قد أعيدت صياغة تركيبها لصالح المشروع الاستعماري، الذي عبرت عنه معاهدة سايكس بيكو، التي جرى بموجبها تقسيم مشرق الوطن العربي بين الاستعمارين الفرنسي والبريطاني، وقد ساهم المستشرقون في صياغة هذه المعاهدة كما ساهموا في خدمة الاستعمار وتفكيك الوطن العربي الذي لا تزال آثاره ماثلة اليوم، ولعل الدور الذي لعبوه في تشكيل العقل والرؤية الثقافية الغربية تجاه هذا الجزء من العالم، قد ساعد بشكل كبير على تحقيق عملية الاختراق الاستعماري للمنطقة العربية.

أما عن الدور الذي لعبته الحركة الإستشراقية في تطور الخارطة السياسية في هذه الحقبة فقد كان دورا مباشرا في التهيئة والتغيير الذي حدث لاحقا في عموم المنطقة العربية ، ولعل بروز شخصيتين بريطانيتين أسطورتين تشكلان أمثلة واضحة وفاضحة على ترابط الأعمال الإستشراقية بالهجمة الاستعمارية.

هاتين الشخصيتين هما : «توماس ادوارد لورانس» الذي اشتهر بلورانس العرب، والذي كان مستشارا للحسين بن علي شريف الحجاز، و«جون فيلبي» الذي كان مستشارا للملك عبد العزيز بن سعود، بالرياض وقد أشرف لورانس على أداء الثورة العربية التي قادها الشريف حسين، فتقمص لورانس العرب دور الشخص العربي البدوي مع إتقانه اللهجة ومعرفته بعادات البدو الرجل مما ساهم في نجاحه.

أما جون فيلبي والذي عرف لاحقا بعد اعتناقه الإسلام بـ «عبد الله فيلبي» فقد كان مرتبطا بالاستخبارات البريطانية بالهند الى جانب توماس ادوارد لورانس.

لقد ضاعف المستشرقون من بحوثهم في فترة ما بين الحربين خدمة المخططات الهادفة إلى إحكام قبضة السيطرة على الأمة العربية في الجزء الشرقي منها وحتى الغربي، وقد تضاعفت نشاطات المستشرقين في تلك الحقبة ، حيث درست اللهجات العربية ومن روادها "كانتيتو" و "هنري فيلش" الذي درس اللغات السامية. وعلى صعيد العناية بالتاريخ كان هناك كثيرا من المستشرقين ممن اهتموا بالدراسات التاريخية فيما بين الحربين ومنهم المستشرق الفرنسي "هوار" الذي ألف كتاب تاريخ بغداد في العصر الحديث، كما نشر كتابا بعنوان تاريخ العرب، ونشر المستشرق الفرنسي "قييت" بحثاً بعنوان: مصر العربية من الفتح العربي إلى الفتح العثماني ، وقد اشتهر بين المستشرقين البارزين في مجال الدراسات التاريخية للعرب والإسلام المستشرق الايطالي "كارل تليينو"، واشتهر أيضا "كارل بركلمان" صاحب كتاب تاريخ الأدب العربي، و"لوفي بروفنسال" بكتاب بعنوان الحضارة العربية في اسبانيا.

أخطر المستشرقين البريطانيين :

ريتشارد فرانسيس بيرتن (1821-1890) يعتبر واحداً من أهم صنّاع السياسة الخارجية الاستعمارية الإنجليزية أثناء النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

مارك سايكس :

قام مارك سايكس برحلات الى البلاد العربية في سياق التطلعات الأمبريالية لبريطانيا في المشرق العربي وفي مضمار خطة بريطانية تهدف تقسيم العالم الإسلامي وفصل العرب عن العثمانيين، وكان يصاحب مارك سايكس في تنفيذ هذا المشروع توماس ادوارد لورنس المعروف بـ "لورنس العرب" وأوبري هربرت "الوزير والحاكم البريطاني على ايرلندا" وجرتروود بيل ، وهاري جون بريجر فيلبي او عبد الله فيلبي وكلهم موظفون في المخابرات البريطانية للفترة التي سبقت وتلت الحرب العالمية الأولى.

وقد لعب "مارك سايكس" بالمشاركة مع "ديفيد لويد جورج" رئيس الوزراء البريطاني في اثناء الحرب وتوماس ادوارد لورنس دورا مهما في رسم خارطة الشرق الاوسط الحديث وتوزيع اراضيه فيما بين الحلفاء وفق معاهدة سايكس- بيكو .

توماس ادوارد لورنس:

هو ضابط مخابرات بريطاني اشتهر بدوره البارز في مساعدة العرب في حربهم التحريرية خلال الثورة العربية الكبرى عام 1916، ولد عام 1888 و توفي عام 1935 بدأ رحلاته إلى الشرق في سن مبكرة وتعلم علوم العربية، كُلف بمهام خلف خطوط العدو العثماني عبر تأليب القبائل العربية وزعمائها ضد الدولة العثمانية ودفعها للتمرد وقطع خطوط امداد الجيش العثماني وشغله، وقد تكلفت مهمة لورنس بالنجاح في اشعال ما عُرف بالثورة العربية عام 1916.

برنارد لويس:

ولد برنارد لويس في لندن عام 1916 وهو مستشرق بريطاني الأصل، يهودي الديانة، صهيوني الانتماء، أمريكي الجنسية، شغل منصب أستاذ فخري في الدراسات الشرق أوسطية في جامعة برنستون وتخصص في تأريخ الإسلام، عُرف ببحوثه في الأرشيف العثماني، أما كتاباته فقد اتسمت بالعنصرية، وأحكامه التلقيفية، وهو لا يتحرّج في الدفاع عن الصهيونية علنا وإيجاد المبررات لها، وهنا تكمن خطورته، حيث له من التأثير ما لا يخفى على طلابه وعلى الآراء الاستشراقية المعاصرة بشكل عام.

ساهم لويس في تأسيس فكرة غزو أفغانستان والعراق بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وابتكر مقولات "صراع الحضارات" و"الإرهاب الإسلامي"، وقد عمل على تقديم توجيهات للسياسة الامريكية في الشرق الاوسط ومنها خاصة غزو العراق والحرب على الارهاب الاسلامي كما يسميه، كما وضع مخطط لتقسيم البلاد العربية وتقنياتها الى دويلات صغيرة وعرضه على المسؤولين الامريكيين .

يعتبر برنارد لويس من المستشرقين المتحاملين على الرسول ﷺ حيث ذكر: « ان الرسول ص كان واقعا تحت التأثيرات اليهودية والنصرانية، وأن افكار التوحيد والوحدانية بالذات والوحي وكثيرا من العناصر الانجيلية الموجودة في القرآن تثبت ذلك ... وان رواية النبي ﷺ لقصص التوراة والانجيل تشير الى معرفته بالتوراة والانجيل ،ربما قد أخذها بصورة غير مباشرة من التجار والمسافرين الذين كانت معلوماتهم خاضعة للتأثيرات المدراسية اليهودية والاساطير الابوكرافية » .

تناول المستشرقين البريطانيين موضوعات تاريخية مختلفة منها وقاموا بتشويه بعض الحقائق فقد استغل بعض المستشرقين روايات مدسوسة في التاريخ الاسلامي فبنوا عليها خيالاتهم و اضافوا الكثير من المعلومات المغرضة منها ما تعلق بزواج الرسول ﷺ من خديجة رضي الله عنها وان الزواج تم بالخديعة وان السيدة خديجة تحايلت لتحقيق هذا الزواج وان الرسول ﷺ لم يكن كفؤ لها ، وان عم خديجة سقي من الخمر حتى اخذت منه، حيث يذكر المستشرق "بودلي" ان بهذه الطريقة اقنعت خديجة عمها بالأمر الذي تم بسرعة ولا شك ان هذا غير صحيح اذ لسنا بحاجة لذكر مكانة الرسول ﷺ في قريش ومكانة بني هاشم أيضا.

وقد خاض المستشرقون البريطانيون في اصول الاسلام ومنهم من يقول ان القرآن استمد من مصادر مختلفة غير معروفة، حيث يذكر جرونباوم: « أن الاسلام يمزج دائما بين المقدرة على تمثيل العناصر الاجنبية مع درجة معينة من العزوف عن الاقرار بالأصول التي استمدت منها ».